دراسة مقارنة للنظريات المبيّنة لحقوق الإنسان في الغرب والإسلام[1]

محمد حسين طالبي[2] وعلي طالبي[3]

بعد ظهـور الحكومات الديمقراطيـة في الغرب طوال القرن السـابع عشر للميلاد وصولًا إلى القرن الثامن عشر للميلاد، حظي خطاب حقوق الإنسـان تحـت عنوان الحقوق الطبيعية باهتمام خاص من قبل الفلاسـفة في الغرب. على الرغم من أنه بسبب هيمنة الوضعية الحقوقية في القرن التاسع عشر للميلاد، تمّ التغافل عن الأبحاث المرتبطة بالقانون الطبيعي[4]، وتبعًا لذلك تم تجاهل الحقوق الطبيعية[5]. وأما في القرن العشرين للميلاد، ولا سـيّما بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى والثانية، تمّ إحياء مفهوم حقوق الإنسان عام ١٩٤٨ م من خلال صدور الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في منظمة الأمم المتحدة، وبذلك حظيت باهتمام المجتمع العالمي.

---

١. المصدر: المقالة بعنوان «بررسي تطبيقي نظريه‌هاي موجه‌سـاز حقوق بشر در غرب واسـلام»، في مجلة حقـوق اسـلامي، التي تصدر في الجمهوريَّة الإسـلاميّة الإيرانيَّة باللغة الفارسـيَّة، العـدد ٣٢، ربيع ١٣٩١هـ.ش، الصفحات ٣٧ إلى ٦١.

تعريب: حسن علي مطر

٢. أستاذ مساعد في حقل فلسفة الحقوق في كلية الحوزة والجامعة / كاتب مسؤول.

٣. باحث على مستوى الماجستير في حقل علوم التواصل الاجتماعي.

4. Natural Law

5. Natural Rights

إن الأبحاث المرتبطة بحقوق الإنسان لا تعدّ اليوم من الموضوعات البالغة الأهمية في المجامع العلمية في العالم فحسب، بل ولها أهمية كبيرة في المجتمعات البشرية من الناحية الاجتماعية والثقافية والحقوقية والأخلاقية ولا سيما السياسية منها.

إن من بين الأبعاد المهمة لخطاب حقوق الإنسان عبارة عن السؤال التوجيهي لهذه الحقوق. وبعبارة أخرى: إن السؤال عن الأسس والأصول العقلية لحقوق الإنسان، يعني أن السؤال عن طرق البيان الفلسفي لهذه الحقوق يُعدّ واحدًا من أهم الموضوعات العلمية المرتبطة بحقوق الإنسان. وهناك الكثير من الأبحاث بين فلاسفة الحقوق في الغرب حول هذا الموضوع. وكانت نتيجة هذه الأبحاث العلمية عبارة عن التأسيس لنظريات متنوّعة حول مباني حقوق الإنسان في إطار شرح وبيان هذه الحقوق. وتسمّى هذه النظريات بالنظريات المبيّنة لحقوق الإنسان.

وهناك اليوم من بين مجموع الآراء المبيّنة لحقوق الإنسان في الغرب ثلاث نظريات تفوق النظريات الأخرى في شهرتها، وهي:

١. نظرية القانون الطبيعي بتفسيراتها المتنوّعة.

٢. نظرية كرامة الإنسان.

٣. نظرية الفاعلية الأخلاقية للإنسان.

يرى كاتب السطور أن لا شيء من هذه النظريات يحتوي على الاستحكام العلمي الكافي في الدفاع عن صوابية هذه الحقوق. وفي المقابل فإن النظرية الوحيدة التي يمكن الدفاع عنها في بيان وشرح مباني حقوق الإنسان، نظرية بديعة تقوم على أساس المفاهيم العقلية الإسلامية، وتم توضيحها في هذه المقالة تحت عنوان «نظرية النزوع إلى مقام الإنسان الكامل».

إن هذه المقالة قبل أن تعمل على بيان هذه النظرية، تسعى إلى تعريف حقوق

الإنسان وبيان أهم خصائصها. ثم ننتقل بعد ذلك إلى الاهتمام بالجذور التاريخية لها في الغرب، ومناقشة ونقد أهم نظريات العلماء في الغرب حول المباني الفلسفية لحقوق الإنسان.

١. تعريف حقوق الإنسان

كان المفكرون في القرون السابقة بدلًا من استخدام مصطلح حقوق الإنسان[١]، يستخدمون مصطلح الحقوق الطبيعية[٢,٣] وكذلك اليوم هناك الكثير من فلاسفة الحقوق، يستخدمون مصطلح «حقوق الإنسان» بوصفه مرادفًا لمصطلح «الحقوق الطبيعية»[٤].

إن الوجه في تسمية الحقوق الطبيعية، يعود إلى واحد من الأمور الثلاثة أدناه:

١. نحن حيث نمتلك طبيعة إنسانية، فإننا نمتلك حقوقًا طبيعية أيضًا (بمعنى الحقوق التي يمتلكها الناس بسبب إنسانيتهم).

٢. الحقوق التي يحصل عليها الناس في مقام الطبيعة والذات[٥].

٣. الحقوق التي نحصل عليها من قانون الطبيعة[٦,٧]

إن الحقوق الطبيعية أو حقوق الإنسان من سنخ الحقوق الأخلاقية. وإن

---

1. Human Rights
2. Natural Rights
3. Campbell, Rights: A Critical Introduction, 37.
4. Jones, Rights; 72; Finnis, Natural Law and Natural Rights, 198; Velastos, "Justice and Equality"; Melden ed.; Human Rights, 79; Wasserstrom, "Rights, Human Rights and Racial Discrimination";Melden ed.; Human Rights, 97.
5. The State of Nature
6. The Law of Nature
7. Meyerson. Understanding Jurisprudence, 118.

الحقــوق الأخلاقية هي الحقــوق التي لا تمتلك أيّ ضمانة تنفيــذة بقوة قهرية. إن الإنســان إذا أراد أن يبني لنفســه حيــاة قيّمة، فإنه يحتاج إلى حقــوق أخلاقية. إن حقوق الإنســان عبارة عن تلك المجموعة من الحقوق التــي يمتلكها جميع أفراد البشر بشكل طبيعي، أي من حيث أنهم بشر، من دون أخذ عناوينهم الثانوية من قبيل: لون البشرة، أو الجنس، أو الانتماء العرقي، أو الطائفي والجغرافي، أو اللغة، أو الطبقة الاجتماعية، وما إلى ذلك بنظر الاعتبار[1]. بالتزامن مع خلق كل إنســان مــن بين أفراد البشر، تخلــق معه تلك الحقوق أيضًا. وبعبــارة أخرى: إن الحقوق الطبيعية أو حقوق الإنسان هي تلك الحقوق الفطرية التي مزجها الله تعالى بجميع الأمور الفطرية. إن دور عقل الإنسان في البين عبارة عن اكتشاف هذه الحقوق. إن العقل من خلال أخذ غرض الخالق من خلق الإنســان بنظر الاعتبار، يدرك هذه الحقوق الطبيعية والاستحقاق الفطري، ويخبر عن وجود هذه الحقوق.

٢. خصائص حقوق الإنسان

هناك اختلاف بين الفلاســفة حــول الخصائص التي تحتــوي عليها حقوق الإنسان؛ فقد ذهب بعض فلاسفة الحقوق في الغرب من أمثال جي. بي. مابوت[2] في كتابه «الدولة والمواطن»[3] إلى الاعتقاد بأن الحقوق الطبيعية خالدة بمعنى أنها ثابتة ومستمرة ولا أمد لها. ولكي تكون هذه الحقوق خالدة، يجب أن تحتوي على خصيصتين، وهما: البداهة والإطلاق (بمعنى عدم قابلية الإسقاط)[4].

1. Donnelly, Universal Human Rights in Theory and Practice, 12; Campbell, Rights: A Critical Introduction, 34.

2. J. B. Mabbott

3. The State and the Citizen.

4. Mabbott, The State and the Citize, P. 57.

وقـد أثبت آخرون من أمثـال مايلن[1] في ضوء الاعتقـاد بوجود علاقة بين الحقـوق الطبيعية ومفهـوم المجتمع الحر عـدم الحاجة إلى القـول بأن الحقوق (الطبيعية) للإنسـان بديهية. وكان مايلن وهـارت[2] يعتقدان أن هذه الحقوق في بعض الأحيان لا تكون مطلقة، بل هي قابلة للإسقاط أيضًا[3].

في الوقت الراهن سـواء أكانت حقوق الإنسان من الأمور البديهية والمطلقة أم لا نجد أن الجامع المشترك لخصائص حقوق الإنسان بين آراء المفكرين، عبارة عـن الخصائص الثلاثة المهمة أدناه[4]. وبعبارة أخرى: إنهم لا يختلفون فيما بينهم حول هذه الخصائص. وهذه الخصائص الثلاثة عبارة عن:

١. الشـمولية والتعميـم: حيث أن هذه الحقوق فطريـة وطبيعية، فإن جميع الناس يمتلكونها. ومن هنا لا يكون للأمور الخارجة عن الطبيعة الإنسـانية من قبيـل: لون البشرة أو العرق أو الجنس أو الانتـماء الطائفي أو القبلي أو اللغة أو الطبقة الاجتماعية وما إلى ذلك أي دور في إيجاد هذه الحقوق.

٢. الأهمية الاسـتثنائية الكبيرة: إن الحقـوق التي لا يكون لها أهمية بالغة، لا تعدّ من حقوق الإنسان بالمعنى المنشود؛ من ذلك أنه يحق لكل إنسان أن يبني بيته على طراز معيّن، أو يحق لبعض الناس أن تكون لهم مجموعة منتقاة من الأحجار الكريمة من شـتى أقطار العالم. ولكن هذه الأمور لا تعدّ من حقوق الإنسان بما هو إنسان؛ إذ ليس لها تلك الأهمية الكبيرة بالنسبة إلى جميع الناس.

---

1. Milne

2. Hart

3. Ogley, “Rights”; Outhwaite and Bottomore eds., The Blackwell Dictionary of Twentieth Century Social Thought, 563.

4. Campbell, Rights: A Critical Introduction, 34.

٣. العملانية: إن حقوق الإنسان يجب أن تكون قابلة للاستيفاء والتحقق، كي يمكن الحصول عليها فيما لو تمّ تجاهلها؛ من ذلك على سبيل المثال أن جميع الناس يحق لهم الوصول إلى المراتب العلمية العالية، وعلى الرغم من أن هذا الحق يُعدّ أمرًا بالغ الأهمية في حياة الإنسان، بيد أن تحقيقه يعدّ مستحيلًا من الناحية الاجتماعية. فلو انصرف جميع الناس إلى طلب العلم والوصول إلى المراتب العلمية العليا، فسوف يحدث اختلال في نظام حياتهم؛ وذلك لأن المجتمع كما يحتاج إلى العلماء والمفكرين والأطباء، يحتاج كذلك إلى العمال والموظفين والعساكر ونظائرهم أيضًا. وفي غير هذه الأحوال لن يتمكن الناس من الوصول إلى الرفاه والسعادة في الأمور الاجتماعية.

٣. الجذور التاريخية لحقوق الإنسان

يدلّ تاريخ حقوق الإنسان في الغرب على أن البحث عن حقوق الإنسان كان له جذور حتى في اليونان القديمة وفي عصر السفسطائيين أيضًا، وإن كان يتم الاكتفاء حاليًا بذكر بعض الأمور العامّة من أبحاث تلك المرحلة.

كانت الرؤية الشهيرة لبروتاغوراس تقول: «إن الإنسان هو المعيار في معرفة كل شيء». وكان هذا الاعتقاد قد شكّل أساسًا لجميع مدركاته الفلسفية. فإذا كان الإنسان معيارًا لمعرفة جميع الأشياء، فإن حقوقه من أشرف الحقوق[1]. إن جميع الناس من وجهة نظر بروتوغراس الإغريقي وكذلك من وجهة نظر بعض فلاسفة روما القديمة من أمثال ألبين يتمتعون بحقوق ذاتية متساوية. إن قواعد هذه الحقوق تقوم على ثلاثة أمور، وهي: المساواة، والحرية، والكرامة؛ بمعنى

1. Waterfield, The First Philosophers: the Presocratics and Sophists, 211.

شرف وعزّة وجلال الإنسان[١]. واليوم يُطلق على هذه الحقوق عنوان حقوق الإنسان.

وكان بعض المدرسيين في العصور الوسطى بدورهم يهتمون بمسألة الحقوق الطبيعية للإنسان. كان فيتوريا من المتكلمين المدرسيين في عصر النهضة في القرن السادس عشر للميلاد يؤمن بأن الله قد خلق جميع الناس بحقوق فطرية معيّنة ومتساوية. ولا يمكن لأيّ شخص بما في ذلك شخصه أن يسلب هذه الحقوق من نفسه؛ وذلك لأن هذه الحقوق لم يخلقها الإنسان لنفسه وإنما خلقها الله له. يذهب أمثال فيتوريا إلى الاعتقاد بأن القانون الطبيعي؛ بمعنى حكم العقل الفطري الموهوب للإنسان من قبل الله، هو الأساس في فهم حقوق الإنسان[٢].

إن الاهتمام الجاد بهذه الحقوق لم يتحقق إلا في المرحلة الجديدة. لقد عمد هوبز[٣] في القرن السابع عشر للميلاد من خلال بيان الطبيعة غير المتمدنة للإنسان إلى القول بأن الحق الطبيعي الأول للإنسان يتمثّل في حق الحرية في القيام بالأمور التي تؤدّي إلى محافظة الإنسان على ذاته[٤]. وبعده بأربعين سنة تقريبًا، ذهب لوك[٥] إلى الاعتقاد بأن حق الإنسان في الحرية وحقه في الحياة وحقه في الملكية، من الحقوق الطبيعية الوحيدة للإنسان. وقال بأن المسؤولية الأهم التي تلقى على عاتق الدولة، هي العمل على حماية الحقوق الطبيعية للمواطنين[٦].

لقد فتحت أعمال هوبز وجان لوك بالتدريج آفاقًا من الأمل بالنسبة إلى صيانة

1. Honoré, Ulpian; Pioneer of Human Rights, 9.
2. Vitoria, "Political Writings [1526-1540]", 9 – 18.
3. Hobbes
4. Hobbes, Leviathan, 84; Milne, Freedom and Rights, 38.
5. Locke
6. Jones, Rights, 73 – 75.

الحقوق الطبيعية في المجتمعات البشرية. لقد كان إعلان الاستقلال الأمريكي[1] سنة ١٧٧٦ م، وكذلك إعلان حقوق الإنسان والمواطنين في فرنسا[2] سنة ١٧٨٩ م، متأثرًا بنظرية جان لوك حول الحقوق الطبيعية للإنسان بشكل واضح. لقد صدر إعلان حقوق الإنسان والمواطنين بعد اندلاع الثورة الفرنسية. وقد اشتمل هذا الإعلان على سبع عشرة مادة. وقد اشتملت المادة الثانية من هذا الإعلان على أربعة أنواع من الأنواع السبعة عشرة من الحقوق بوصفها من الحقوق الطبيعية والضرورية والمقدّسة للإنسان. وإن هذه الحقوق عبارة عن: حق الحرية، وحق الملكية، وحق الأمن، وحق الوقوف بوجه الظلم[3]. وأما المواد الثلاثة عشرة الأخرى في هذا الإعلان فهي من الحقوق الخاصة بالمواطنة.

لقد كان السبب في بيان الحقوق الطبيعية في المرحلة الجديدة للحضارة الغربية، هو الحيلولة دون استبداد السلطة والدولة. لقد كان الفلاسفة من أمثال هوبز وجان لوك وغيرهما يسعون من خلال بيان مسألة الحقوق الطبيعية إلى بيان هذه المسؤولية الملقاة على عاتق الدوَل والحكومات؛ حيث يتعيّن عليها توفير الأمن للمواطنين. وكان لازم هذا الأمر هو اعتبار الحقوق الطبيعية (حقوق الإنسان) من المسائل الوطنية وتعدّ من الحقوق الداخلية للبلدان؛ وعلى هذا الأساس كانت نظرة الدوَل والحكومات إلى الحقوق الطبيعية حتى ما قبل القرن العشرين للميلاد نظرة شمولية.

---

1. The Declaration of Independence of the United States of America

2. France's Declaration of the Rights of Man

٣. «إنّ غاية جميع الهيئات السياسية هي صون الحقوق الطبيعية وغير القابلة للتقادم للإنسان؛ وهذه الحقوق هي: الحرية، والملكية، والأمان، ومقاومة الطغيان».

Melden, Appendix III: "Declaration of the Rights of Man and of Citizens", 140 - 142; Appendix IV: "Universal Declaration of Human Rights", 143 - 149, 140.

ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى والثانية في القرن العشرين للميلاد وما نجم عنهما من الخسائر الجسيمة في الأرواح والأموال التي دفعتها الشعوب وهضم حقوقهم، بدأ المجتمع العالمي جهوده ومساعيه من أجل عولمة حقوق الإنسان. وقد توجّهت الدوَل والحكومات للمرّة الأولى إلى الاعتراف الرسمي بالحقوق الطبيعية للناس دون الالتفات إلى انتماءاتهم وخلفياتهم. وقد أدّى ذلك إلى اعتبار مسألة حقوق الإنسان التي كانت حتى ذلك الحين تعدّ مسألة تخص المواطنة في حدود الدولة مسألة عامة من مسائل الحقوق العالمية[١]. ومن هنا أصدرت منظمة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٨ م إعلانها المعروف بـ«الإعلان العالمي لحقوق الإنسان»[٢].

والآن بعد أن حصلنا على معلومات حول مفهوم حقوق الإنسان وخصائص هذه الحقوق، وكانت لنا إطلالة مختصرة على تاريخ حقوق الإنسان، نتعرّض فيما يلي إلى أهم ما نحن بصدد بيانه في هذه المقالة. ولهذا الغرض سوف نعمل في البداية على بيان الأسس والقواعد الفلسفية لحقوق الإنسان في الغرب وهي عبارة عن النظريات الشارحة لمصاديق حقوق الإنسان في الغرب. ثم نعمل بعد ذلك على تقييم كل واحد منها. وفي الختام سوف نقدّم للقارئ الكريم نظرية بديعة حول الجذور الفلسفية لحقوق الإنسان في الإسلام.

٤. نقد ومناقشة الأسس الفلسفية لحقوق الإنسان في الغرب

إن النظريات الفلسفية المبيّنة لحقوق الإنسان في الغرب متنوّعة. ومن بين هذه الآراء المتنوعة نجد أن أشهر النظريات المفسّرة لحقوق الإنسان، عبارة عن:

---

١. مظفري، كشورهاي اسلامي و حقوق بشر، ٢٦.

2. Universal Declaration of Human Rights.

نظرية القانون الطبيعي، ونظرية الكرامة الإنسانية، ونظرية النشاط الأخلاقي للإنسان. وسوف نسعى في هذا القسم إلى بيان هذه النظريات الثلاثة بشكل صحيح، مع بيان علة صوابية أو عدم صوابية كل واحد منها.

أ. نظرية القانون الطبيعي[1]

إن لمفهوم القانون الطبيعي جذورًا تاريخية عريقة في أبحاث الحكمة العملية. حيث نرى جذور هذه الرؤية في أعمال الفلاسفة المتقدّمين على سقراط في اليونان القديمة[2]. وبالنظر إلى السابقة التاريخية الطويلة لهذه النظرية، فقد شهدنا الكثير من الشروح والتفسيرات المتنوّعة لها. وإن خلاصة تفسير المؤيدين لهذه النظرية في العصر الراهن هي أن القانون الطبيعية عبارة عن: «الأحكام العامة للعقل العملي حول حسن وقبح أفعال البشر». وبعبارة أخرى: إن محتوى القانون الطبيعي المعاصر عبارة عن أوامر ونواهي العقل العملي بشأن أفعال الإنسان.

كان بسبب وجود القانون الطبيعي أن تمّ التعريف لأول مرة بعد القرون الوسطى بالحقوق الطبيعية التي تعرف حاليًا بحقوق الإنسان من قبل توماس هوبز. إذ يقول هوبز: «إن حكم العقل ومفاد القانون الطبيعي القائم على الإرادة الطبيعية للإنسان، هو أن على جميع الأفراد أن يحافظوا على أرواحهم. ولهذا السبب يحق للإنسان بشكل طبيعي أن يتمتع بالحرية في القيام بكل شيء من أجل صيانة نفسه. إن هذه الحرية هي الحق الطبيعي الوحيد للإنسان»[3].

إن جان لوك كان يرى أن مضمون القانون الطبيعي بالإضافة إلى وجوب

---

1. Natural Law Theory

٢. طالبي، «بازخواني انتقادي آموزه قانون طبيعي در حكمت عملي يونان باستان»، ١٧٢.

3. Milne, Freedom and Rights, 38.

حفـظ النفس عبـارة عن وجوب اجتنـاب العدوان على حقـوق الآخرين. إن وجوب الامتناع عن التعرّض لحقوق الآخرين يعني وجوب احترام ملكيتهم. إن هذا الحكـم للقانون الطبيعي في رؤية جان لوك قد قام على الميول والرغبات البشرية في طبيعة الإنسـان، وعلى هذا الأسـاس فإن الحقوق الطبيعية في نظرته بالإضافة إلى حق الحرية وحق الحياة عبارة عن حق الملكية[1].

واليوم أيضًا يُعدّ القانون الطبيعي بدوره واحدًا من الأدلة على وجوب وجود حقوق الإنسان. إن أهم منظر معاصر للتومائية الحديثة الذي قدّم تفسيرًا جديدًا لنظرية توما الأكويني حول القانون الطبيعي، هو جون فينيس[2]. لقد ذهب فينيس في مقـام بيان نظريته تبعًا لتوما الأكويني إلى الاعتقاد بأن القانون الطبيعي عبارة عن محتوى حكم العقل العملي. إنه بدلًا من أن يقيم نظريته على أساس إرادة الله (تفسير أغلب المتكلمين المسيحيين في العصور الوسطى)، أو على أساس طبيعة الإنسان (تفسير الفلاسفة في العصر الحديث)، قد أقامها على أساس مفهوم الخير الذاتي والسـلوك العقلاني. إنه يرى أن العمل الحكيم هو الذي يتمّ القيام به من أجل تحقيق خير ذاتي أصيل واحد في الحدّ الأدنى. إن الخيرات الأصيلة التي تصل في رأي جون فينيس إلى سبعة موارد تعد أقصى الغايات في القيام بالأفعال العقلانية. إن الأشـخاص يسـعون إما عامدين أو بوحي مـن طبيعتهم طوال حياتهـم من أجل الحصول على هذه الخـيرات الأصيلة. يذهب جون فينيس إلى الاعتقاد بأن هذه الخيرات هي بأجمعها تجليات مختلفة لسعادة الإنسان[3] والأبعاد المتنوّعة وشخصيته[4].

1. Ibid, 44.

2. John Finnis

3. Finnis, Natural Law and Natural Rights, 85.

4. Finnis, Fundamentals of Ethics, 125.

إن قائمة الخيرات الأصيلة في ضوء آخر آراء جون فينيس في تفسيره لنظرية القانون الطبيعي عبارة عن: الحياة المادية، والعلم، والمهارة في العمل والترفيه، والصداقة، والزواج، والعقلانية العملية[١]، والدين[٢]. إن هذه الخيرات الأصيلة السبعة تحتوي على خمس خصائص مشتركة، وهي: البداهة، والذاتية، وعدم الارتباط، والأهمية الواحدة، وعدم استنتاجها من الواقعية[٣].

إن النقطة المهمة تكمن في كيفية انتقال جون فينيس من نظرية القانون الطبيعي إلى حقوق الإنسان؟ إن الحقوق الطبيعية من وجهة نظره ترادف حقوق الإنسان[٤]. إن طريق الوصول إلى هذه الحقوق عبارة عن تطبيق العدالة. إن العدالة مفهوم يقوم على ثلاثة عناصر، وهي: الارتباط بالآخرين، والقيام بالتكليف، والمساواة[٥]. إن التبعية لخيرين أصيلين في المجتمع باسم العقلانية العملية والمحبّة، تعدّ من لوازم العدالة الاجتماعية عند جون فينيس[٦]. من الواضح أن الناس بالإضافة إلى السعادة الفردية يسعون إلى تحقيق السعادة والخير الاجتماعي المشترك[٧] أيضًا. إن الوصول إلى هذه السعادة الاجتماعية والحصول على هذا الخير المشترك إنما يمكن من طريق تطبيق العدالة الاجتماعية واستيفاء حقوق الإنسان.

---

١. إن العقلانية العملية تعني أن يكون مسار الوصول إلى الخيرات الأصيلة الأخرى، مسارًا عقلانيًا. وبعبارة أخرى: إن جون فينيس يذهب إلى الاعتقاد بأن الغاية لا تبرر الوسيلة أبدًا. إن الإنسان من أجل الوصول إلى كل واحد من الخيرات الأصيلة يجب عليه أن يختار سلوك الطريق الصحيح. كان هذا هو حكم العقل العملي حيث يرى جون فينيس أنه واحدًا من الخيرات الأصيلة(Ibid, 70 – 74).

2. Finnis, "Is Natural Law Theory Compatible with Limited Government?", 4.

٣. طالبي، «جديدترين نظريه قانون طبيعي در بوته نقد»، ٦٨ – ٧٣.

4. Finnis, Natural Law and Natural Rights, 198.

5. Ibid, 161 – 162.

6. Ibid, 164.

7. Common Good

إنه يرى أن للإنسان حقًا طبيعيًا بالنسبة إلى جميع الخيرات الأصيلة التي تمثل كلها [في المجتمع] تجليات للسعادة ووسيله لرشده وتكامله[1].

ب. نقد ومناقشة نظرية القانون الطبيعي

١. إن الإشكال المشترك الذي يرد على جميع قراءات نظرية القانون الطبيعي، هو أن هذه النظرية على الرغم من سعتها وسابقتها الطويلة والقديمة، تنطوي على غموض كبير. ولهذا السبب ظهرت حتى الآن تفسيرات كثيرة لهذا القانون. وهذا الأمر في حدّ ذاته يمثّل دليلًا على عدم صوابية بعض هذه التفاسير.

٢. إن كلام جون هوبز القائل بأن حكم العقل يقضي بعمل جميع الأشخاص على الحفاظ على أرواحهم، أولًا: ليس صحيحًا دائمًا وبشكل مطلق؛ من ذلك مثلًا في موارد دفاع الجنود عن الوطن. وثانيًا: إن هذا الكلام ليس كاملًا. هناك أمور أخرى أيضًا قد أمر بها عقل الإنسان أو نهى عنها بشكل فطري، وتعدّ بمنزلة القانون الطبيعي؛ من قبيل القانون العقلي بوجوب تطبيق العدالة. إن حكم عقل جميع الناس بحُسن العدل ووجوب تطبيقه حكم بديهي؛ كما أن عقل الإنسان يحكم بقبح الظلم ووجوب اجتنابه بشكل بديهي[2].

٣. إن جون لوك بدوره مثل هوبز لم يبيّن جميع أصول القانون الطبيعي أيضًا. هناك أحكام أخرى عن العقل لم يلتفت إليها جون لوك؛ من ذلك مثلًا أن أصل النزوع إلى الكمال عند البشر، أمر لا شك فيه، وجميع الناس يدركون ذلك في ذواتهم. في ضوء هذا الأصل تكون جميع الكمالات التي يجدر بالإنسان أن يحصل عليها، تعدّ بمنزلة حق من حقوق الإنسان. وفيما لو كان هذا الكمال يلعب دورًا

1. Finnis, Natural Law and Natural Rights, 221.

٢. حائري يزدي، كاوش‌هاي عقل عملي، ١٢٧.

محوريًا في تكامل الإنسان، فسوف يتمّ الالتفات إليه بوصفه مصداقًا من مصاديق حقوق الإنسان؛ وعلى هذا الأساس فإن الحقوق الطبيعية للإنسان ليست هي جميع تلك الأمور التي ذكرها جون لوك.

٤. لا شيء من الخيرات الأصيلة في نظرية القانون الطبيعي لجون فينيس، أصيلة أو جوهرية؛ وذلك إذ لا شيء من الخصائص المنسوبة إلى هذه الخيرات التي يدّعيها جون فينيس صحيحة. وفي الواقع لا شيء منها بديهي، ولا ذاتي، ولا هي منفصلة عن بعضها، ولا تنطوي على أهمية متساوية. كما أن هذه الخيرات تقوم على أساس الواقعية؛ بمعنى أنها تشتق من أمور الواقع مثل طبيعة الإنسان[١].

٥. إن جون فينيس لم يجب عن هذا السؤال المهم، وهو لماذا يكون للإنسان حق طبيعي بالنسبة إلى الخيرات الطبيعية.

ج. نظرية كرامة الإنسان[٢]

إن من بين أكثر طرق تفسير حقوق الإنسان شهرة وأنصارًا، هي نظرية الكرامة الذاتية للإنسان. يذهب بعض المنظرين في حقل حقوق الإنسان في الغرب إلى الاعتقاد بأن الكرامة الذاتية تعدّ من الخصائص البالغة الأهمية في الطبيعة الأخلاقية للإنسان؛ حيث تكون بسبب أهميتها وعموميتها ملاكًا لوجود حقوق الإنسان. بعبارة أخرى: إن حقوق الإنسان إنما توجد ليتمّ الحفاظ بواسطتها على الكرامة الذاتية للإنسان. إن جميع الناس بسبب كرامتهم الذاتية، يتمتعون بحقوق الإنسان أيضًا. إن كرامة الإنسان تعني أن للإنسان حقًا فطريًا في أن يُحترم وأن يكون موضعًا للسلوك الأخلاقي. وقد جاء في المادة الأولى من الإعلان العالمي

---

١. طالبي، «جديدترين نظريه قانون طبيعي در بوته نقد»، ٦٨ - ٧٣.

2. Theory of Inherent Dignity.

لحقوق الإنسان: «يولد جميع الناس أحرارًا ومتساوين في الكرامة والحقوق»[١].

يقـول دونيللي[٢] وهو من أهمّ أنصـار نظرية الكرامة الذاتية للإنسـان: «إن حقوق الإنسـان لا تعنى بتوفير الصحة والسلامة للإنسـان، وإنما نحتاج إليها من أجل الحفاظ على كرامة الإنسـان؛ وللحصول على حياة تتناسـب مع شـأن الإنسان، وهي الحياة التي لن تنطوي على متعة من دونها»[٣].

وهو حيث أطلق على نظرية الكرامة الذاتية للإنسان عنوان «النظرية الصانعة لحقوق الإنسان»[٤]، فقد ذهب إلى الاعتقاد قائلًا: «إن كرامة وعزّة شأن الإنسان هو الذي يُنتج حقوق الإنسان؛ بحيث أن إنكار هذه الحقوق يستلزم إنكار إنسانية الإنسـان؛ وعلى هذا الأساس فإن الطريق الوحيد إلى معرفة حقوق الإنسان هو أن نعمل بواسطة علم الأنثروبولوجيا الفلسفية إلى التعريف بالذات التي تحتوي على الكرامة الإنسانية بوضوح»[٥].

إن حقـوق الإنسـان من وجهة نظر جاك دونيللي ليسـت هبـة إلهية، كما أن الطبيعة ليسـت هي التي أعطت هذا الحق للإنسان. وإن الظواهر المادية للحياة بدورها ليست هي التي منحت هذه الحقول للبشر. إن حقوق الإنسان مثل سائر النشاطات الاجتماعية تنشأ من أفعاله الكريمة والنبيلة. إن حقوق الإنسان تمثل التجليات الأخلاقية الخاصة لقابليات البشرية[٦].

---

1. Article 1: All Human Beings are Born free and Equal in Dignity and Rights ... (Melden,1970 , p. 143).

2. Donnelly

3. Donnelly, Universal Human Rights in Theory and Practice, 17.

4. constructivist Theory of Human Rights

5. Donnelly, The Concept of Human Rights, 31.

6. Ibid, 31.

إن نظرية الكرامة الإنسانية كما تعتبر حقوق الإنسان شاملة لجميع أفراد البشر، فإنها تعمل على إخراج غير الإنسان من شمول دائرة هذه الحقوق أيضًا؛ بمعنى أنه حيث يذهب أنصار هذه النظرية إلى الاعتقاد بأن الناس وحدهم الذين يمتلكون الكرامة الذاتية، فإن غير البشر لا يمتلكون مثل هذه الحقوق أبدًا.

د. نقد ومناقشة نظرية الكرامة الإنسانية

١. يستحيل الفصل بين الذات والأمر الذاتي. إذا كان الناس يحظون بالكرامة الذاتية والاحترام بسبب امتلاكهم لبعض الخصائص الطبيعية مثل العقل، فلا ينبغي سلب هذه الكرامة والاحترام عنهم بأيّ شكل من الأشكال. وعلى هذا الأساس يتمّ رفض كل ما يتمّ توظيفه لانتهاك هذه الكرامة وهذا الاحترام، ويتمّ التعامل معه بوصفه أمرًا محرّمًا.

وبعبارة أخرى: إن إيذاء أو إهانة أيّ إنسان، يعدّ نوعًا من الأفعال المنافية لكرامته وشأنه الإنساني؛ ومن هنا فإن لازم امتلاك الكرامة الذاتية أن يحظى الإنسان بالاحترام على الدوام، واجتناب توجيه أيّ أمر يؤدّي إلى الإساءة إليه وانتهاك حرمته. وبناء على هذا تكون نتيجة ادعاء الكرامة الذاتية للإنسان هي أن المجرمين لا يستحقون العقاب أبدًا؛ لأن الإنسان المجرم سوف يتأذى بالعقوبة وتمتهن كرامته، وبذلك سوف تنتهك كرامته؛ وعليه فإن عقوبة المجرم تتنافى مع أصل الكرامة الذاتية للإنسان.

هذا في حين ليس هناك شخص يمتلك مسكة من العقل السليم، لا يحكم بعدم صحّة وصوابية أصل معاقبة المجرمين؛ وعلى هذا الأساس يجب إما القول بأن الكرامة الإنسانية ليست ذاتية، وإنما يمكن أن تنفصل عن ذاته، أو يجب

القول إن الكرامة الذاتية لا تستوجب القيمة والاحترام. وفي هذه الحالة على الرغم من أن معاقبة الإنسان المجرم لا تتنافى مع كرامته الذاتية؛ بيد أن هذه الكرامة الذاتية لا تنطوي على أي فائدة. إن الكرامة التي لا تقترن بالقيمة لن تكون سوى مفهوم انتزاعي. من الواضح أن مراد أنصار نظرية الكرامة الذاتية للإنسان، هي الكرامة التي يحصل الإنسان بسببها على قيمته.

٢. إن مفهوم الكرامة الذاتية مفهوم مبهم ويكتنفه الغموض، ولذلك نشهد الكثير من الاختلافات في مقام تشخيص مصاديقه. ما هي الأمور التي بموجبها يتمّ الحفاظ على كرامة الإنسان وحرمته؟ وبعبارة أخرى: ما هي الأفعال التي تؤدّي إلى هتك حيثية الإنسان وعدم احترامه وامتهان كرامته؟ إن الغموض الذي يكتنف مفهوم ومصداق الكرامة قد أدّى ببعض الحقوق إلى أن تعتبر من وجهة نظر بعض أنصار نظرية الكرامة الذاتية للإنسان في عداد حقوق الإنسان؛ ولكنها لا تعد من وجهة نظر سائر أنصار هذه النظرية من مصاديق حقوق الإنسان.

٣. لو قبلنا بأصل الكرامة الذاتية للإنسان، يجب علينا أن لا نقول في مسألة احترام أفراد الإنسان بالفرق بين الصالحين والطالحين من أفراد البشر؛ إذ جميع الناس يتحلون بخصائص إنسانية متشابهة تقريبًا، من قبيل: العقلانية وما إلى ذلك. فقد كان الأنبياء وأوصياؤهم يتمتعون بالمقارنة إلى الملوك والحكام الجائرين من أمثال الفراعنة الطغاة، بقوى طبيعية وبشرية متساوية معهم تقريبًا. ولازم ذلك هو أن يتمتعوا بأجمعهم بمقدار واحد من نعمة الكرامة، في حين أن صاحب كل وجدان وضمير حي يحكم باختلاف مرتبة الكرامة بين الأخيار

والأشرار من بني البشر. من الواضح أن المحسنين والأبرار أفضل بمراتب من الجناة والمسيئين وأكثر منهم قيمة وحرمة وكرامة.

٤. إن ما قاله دونيللي المنظر الشهير لنظرية الكرامة الذاتية للإنسان من الاعتقاد بأن الله ليس هو الذي أعطى الحقوق للإنسان، خطأ قاتل يعاني منه اليوم الكثير من فلاسفة الحقوق في العالم الغربي. إن ربّ العالمين هو الخالق لكل خير وكمال في العالم. فإذا كان الإنسان يمتلك كرامة فإن الله الخالق هو الذي أعطاه هذه الكرامة. إن خطأ دونيللي ومن على نهجه الفكري يكمن في تصوّرهم الخاطئ بأن الاعتقاد بالله يتساوى مع القول بالجبر، ولا ينسجم مع العقلانية. إنهم يتصوّرون أننا إذا قلنا بأن الله هو الذي أعطى حقوق الإنسان للبشر، فإننا بذلك نكون قد أنكرنا اختيار الإنسان وإرادته، هذا في حين أن البراهين العقلية وكذلك النصوص الدينية المقدّسة تشهد على أن الإنسان على الرغم من كونه مخلوقًا لله وقد منحه الله الكرامة، إلا أنه يتمتع بنعمة الإرادة والاختيار في القيام بأفعاله وأعماله؛ وعلى هذا الأساس يمكن الاعتقاد بأن الله سبحانه وتعالى قد منح الإنسان عزّة وكرامة، وأنه بسبب هذه الكرامة قد اعتبر له بعض الحقوق أيضًا.

إن الإنسان ما دام مالكًا لهذه الإنسانية، فإنه يحظى بهذه الحقوق، وأما ما هي الإنسانية والحقيقية، ومن هو الإنسان الحقيقي، فهو بحث سوف نتعرّض له عند بيان النظرية الإسلامية «الانتماء إلى الإنسان الكامل» في هذا الشأن.

٥. إن الإنسان لا يمتلك كرامة ذاتية؛ بمعنى أنه ليس كل الناس يحظون بالاحترام والكرامة في جميع الأحوال. بل وإن هناك الكثير من الذين لا

يمتلكون أيّ منزلة أو كرامة بسبب الظلم الكبير والجور الذي ارتكبوه بحق الآخرين[١]. هناك الكثير من الجناة الذين ظهروا طوال تاريخ البشرية وارتكبوا أبشع الجرائم بحق الإنسانية وأنفقوا جلّ أعمارهم في قتل الأبرياء. إن هؤلاء القتلة لا يحظون بالقيمة والكرامة والاحترام عند أيّ إنسان منصف بما في ذلك أنصار نظرية الكرامة الذاتية أنفسهم.

قال الله تعالى في الذين يناصبون الله ورسوله العداء: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ**﴾[٢].

وعلى هذا الأساس، لا تكون نظرية الكرامة الذاتية وتبعًا لها الاحترام الذاتي جامعة لكافّة أفراد البشر.

٦. إن هذه النظرية لا تمنع الأغيار. وبعبارة أخرى: إن الكرامة والاحترام لا يقتصران على الإنسان فقط. هناك موجودات أخرى في العالم تحظى بالاحترام أيضًا. فإن الله والملائكة وبعض الجن يحظون بالكرامة والاحترام أيضًا. ومع ذلك فإن هؤلاء لا يحظون بحقوق الإنسان بحسب المصطلح؛ وعلى هذا الأساس لا يمكن القول بأن الكرامة الذاتية هي الملاك والمعيار في وجود حقوق الإنسان.

بعد بيان نواقص نظرية الكرامة الذاتية يمكن أن نستنتج أن الإنسان حيث لا يتمتع بالكرامة الذاتية، فإن هذه النظرية تعدّ مرفوضة وغير مقبولة.

---

١. المصباح اليزدي، نظريه حقوق اسلام، ١- ٢٨٠.

٢. المجادلة: ٢٠.

هـ. نظرية فاعلية الأخلاق البشرية[1]

إن مــن بين النظريات الأخرى التي تذهب مثــل نظرية الكرامة الذاتية إلى القول بأن ملاك تفسير وبيان حقوق الإنسان هي الطبيعة الأخلاقية له، نظرية تعــدّ فاعلية أخلاق الإنســان من أجل الوصول إلى الســعادة معيــارًا لوجود مصاديق من الحق باســم حقوق الإنســان. يقول آلان جيورث[2] مؤسس هذه النظريــة: «إن الفاعلية أو الفعل، هو الموضوع المشــترك لجميع أنواع الأخلاق والعمل»[3].

يذهــب آلان جيــورث إلى الاعتقاد بــأن كل عمل أخلاقــي ينطوي على خصوصيتين عامّتين، وهما:

١. اختيار وحرية الفاعل.

٢. هدفية وعقلانية الفاعل.

وبعبارة أخرى: إن كل فاعــل أخلاقي لكي يصل إلى أهدافه يقوم بالعمل باختياره وإرادته. إن هذا الهدف يعدّ من وجهة نظر الفاعل أمرًا حسنًا. وليس ذلك العمل حســنًا فحســب، بل وإن كل ما يُعدّ مقدمة لذلك العمل ســوف يُعدّ حسنًا أيضًا. وإن من بين أهم مقدمات العمل الأخلاقي وأكثرها ضرورة وجوهرية من وجهة نظر آلان جيورث عبارة عن الحرية في العمل والسعادة[4]. إن الذي لا يمتلــك الحرية في العمل ويقوم به مكرهًا، لن يُعدّ ذلك الفعل منه

---

1. Theory of Moral Agency
2. Allan Gewirth
3. Gewirth, "Why There Are Human Rights", 235.
4. Gewirth, Human Rights: Essays on Justification and Applications, 4.

عمـلًا أخلاقيًا. وهكـذا الأمر بالنسـبة إلى الذي لا يمتلـك العناصر الأولية للسـعادة، من قبيل: الحياة، والسلامة الجسدية، أو لا يمتلك الثقة بالنفس، أو لا يسـتطيع القيام بعمل، أو إذا قام به، لا يعدّ ذلك العمل منه عملًا أخلاقيًا؛ إذ من وجهة نظر آلان جيورث لا يمكن للإنسان من دون وجود أحد عناصر السـعادة، من قبيل: الثقة بالنفس، أو الحصول على مستوى من المعلومات، لا يمكن للإنسان أن يواصل غايته الأخلاقية في أفعاله وأعماله؛ وعلى هذا الأساس فإن امتلاك الحرية في العمل من وجهة نظره وكذلك امتلاك السعادة، يُعدّ من أهم مصاديق حقوق الإنسـان. إن سـائر مصاديق حقوق الإنسـان تقوم على أسـاس هذين الحقين. والنتيجة هي أنه على أساس نظرية الفاعلية الأخلاقية، تكون جميع مصاديق حقوق الإنسان ضرورية لضمان فاعليته الأخلاقية، وعلى الرغم من أن هذه المصاديق في إطار ضمان الفاعلية الأخلاقية لا تحظى بدرجة واحدة من الأهمية[1].

لقد ذهب آلان جيورث إلى تقسيم الحقوق إلى عدّة أقسام:

١. الحقوق الأصيلة التي تعمل على حماية وجود الإنسان وسعادته الأصيلة.

٢. الحقوق التي تضمن فاعلية هدفية الإنسان.

٣. الحقوق الإضافية التي تؤدّي إلى زيادة قدرات الإنسان، من قبيل: الحق في تعلم بعض المهارات الفنية.

وهو من بين هذه الطوائـف الثلاثة من الحقوق، يذهب إلى اعتبار الحقوق التي تكون سـببًا في تلبية احتياجات الفاعلية الأخلاقية للإنسـان من حقوق

1. Jones, Rights, 99 – 100.

الإنسان؛ وعلى هذا الأساس فإن الذين يعانون قصورًا في مستوى الذكاء ولا يمتلكون نشاطًا ذهنيًا، أي لا يمتلكون ظرفية فاعلية، إنما يحظون بالحقوق من النوع الأول فقط. يرى آلان جيورث أن هؤلاء الأشخاص لا يتمتعون بحقوق الإنسان.

و. نقد ومناقشة نظرية فاعلية الإنسان

إن هذه النظرية بدورها مثل نظرية الكرامة الذاتية للإنسان تعاني من بعض النواقص، وبعضها عبارة عن:

١. إن هذه النظرية تنفي صفة التعميم عن حقوق الإنسان. وبعبارة أخرى: إن بعض الأفراد لا يتمتعون بحقوق الإنسان؛ إذ لا يمتلكون قدرة الفاعل الهادف، من قبيل الأشخاص المغمى عليهم أو المجانين ونظائرهم.

٢. إن عنصري الحرية في العمل والسعادة (الحياة والسلامة وما إلى ذلك) اللذين يُعدان في استدلال آلان جيورث من أهم حقوق كل فاعل أخلاقي، يؤدّيان بجميع الأشخاص الذين يمتلكون هاتين الصفتين ليكونوا من الفاعلين الأخلاقيين ويمتلكون جميع الحقوق المعروفة بحقوق الإنسان ومن بينها الحق في الحياة. هذا في حين أن الكثير من الأشخاص الذين يتوفر فيهم هذان الشرطان، لا يستحقون الحياة بسبب الظلم الكبير الذي اقترفوه بحق سائر الناس؛ لأنهم تسببوا في القضاء على حقوق الآخرين، بما في ذلك حقهم في الحياة.

٣. قال آلان جيورث في استدلاله: «إن كل شخص في مقام القيام بعمل هادف، يكون ذلك الفعل الهادف حسنًا من وجهة نظر الفاعل. وسوف تكون

جميع مقدمات ذلك العمل خيرًا». ثم قال: «إذن يحق للإنسان أن يمتلك تلك الخيرات».

والسؤال هو: هل كل هدف يبدو من وجهة نظر الفاعل أمرًا حسنًا، يكون في الواقع خيرًا أيضًا؟ يبدو من ظاهر كلمات آلان جيورث أن الجواب عن هذا السؤال هو الإيجاب. وإن لازم هذا الجواب الإيجابي، هو:

أ. أن يكون الخير أمرًا نسبيًا؛ وذلك لأن جور الظالمين الذي يشكل هدفًا لارتكابهم الأفعال الظالمة، سوف يُعتبر من وجهة نظر آلان جيورث أمرًا حسنًا؛ لاعتقاده بأن كل هدف يعدّ حسنًا بالنسبة إلى فاعله. هذا في حين أن الظلم شرّ في ذاته ولا يكون أمرًا مطلوبًا.

ب. يحق للأشخاص أن يمارسوا الظلم بحق الآخرين؛ إذ في ضوء نظرية آلان جيورث، يحق للفاعل الهادف أن ينجز ما يهدف إليه على المستوى العملي؛ لأن ذلك الهدف يُعدّ حسنًا وخيرًا من وجهة نظر الفاعل، وإن للفاعل حقًا بالنسبة إلى ذلك الخير.

لا شك في أن آلان جيورث لا يلتزم بهذه اللوازم الخاطئة التي تترتب على كلامه.

٥. الأسس الفلسفية لحقوق الإنسان في الإسلام (نظرية القول بمقام الإنسان الكامل)

بعد أن قمنا بنقد أهم النظريات الفلسفية لشرح وبيان حقوق الإنسان في الغرب، ندرك عجز المنظومة الفلسفية للغرب في بيان مباني حقوق الإنسان. إن الإشكال الأهم الذي تعاني منه جميع هذه النظريات يكمن في تفسيرها البشري لماهية الإنسان. وبعبارة أخرى: حيث أن نظرة الإنسان إلى ماهيته نظرة سطحية وغير جامعة، فإن التعريفات التي تقدّمها النظريات البشرية، هي على الدوام تعريفات ناقصة وتخلو من الدقّة. إن التعريف الوحيد الكامل والذي يمكن التعويل عليه بشأن حقيقة وماهية الإنسان، هو ذلك التعريف الذي يقدّمه خالق الإنسان؛ وذلك لأن خالق البشر هو الوحيد الذي له إشراف علمي وعملي تامّ على مخلوقاته، ويمكنه أن يقدّم برؤيته العميقة والدقيقة والجامعة تعريفًا كاملًا لحقيقة الإنسان.

إن مهمّة علم الفلسفة الإسلامية في بيان المباني الفلسفية لحقوق الإنسان، أن تعمل بالاستفادة من التعريف الذي يقدّمه الله سبحانه وتعالى بوصفه الخالق والعلّة الفاعلية للإنسان في بيان حقيقة الإنسان، على إيصال المباني الفلسفية للنظرية الإسلامية بشأن حقوق الإنسان تحت عنوان «نظرية القول بالإنسان الكامل» إلى ذوي العقول الراجحة.

إن هذه النظرية من خلال تحليل وجود الإنسان والتعريف بالعناصر المادية والمعنوية لوجوده بمعنى جسده وروحه تؤكد على هذه النقطة، وهي أن الحقيقة الثابتة للإنسان، عبارة عن خصائصه الروحية. ولهذا السبب فإن أهمية روح الإنسان تفوق أهمية البدن. وكذلك فإن هذه النظرية من خلال التركيز على

نزوع الإنسان إلى البحث عن الكمال، عمدت إلى شرح وبيان الهدف والغاية من خلقه، من خلال تعريف ذات البشر، عمدت إلى تسمية الأمور التي تساعد في الوصول والاقتراب من المقام العالي للإنسان الكامل بحقوق الإنسان.

إن الإنسان في ضوء هذه النظرية يتألف من عنصرين، وهما : العنصر المادي (الجسم)، والعنصر المعنوي (الروح)[١]. إن العنصر المادي الذي يتكوّن بالتدريج، ينتهي أمره إلى الزوال بالموت. إن الروح المجرّدة للإنسان هي الحقيقة الثابتة للإنسان حيث توجد فيها الخصائص الشخصية للإنسان[٢].

يقول القرآن الكريم إن هذه الروح تمثّل تجليًا لروح الله[٣]، وما دامت مرتبطة بالله يكون لها حياة إنسانية؛ بمعنى أنه ما دامت هذه الروح متألّهة يكون صاحبها إنسانًا. وبعبارة واضحة يمكن القول: إن الإنسان في ضوء التعاليم الحيوية للدين الإسلامي الحنيف حيّ متأله[٤]. بعبارة أخرى: إن الإنسان كائن حيّ تكون حياته رهنًا بتألهه؛ أي أن حياته مرتبطة بالله سبحانه وتعالى[٥].

إن الإنسان الحيّ من زاوية الله الخالق في القرآن الكريم هو الشخص الذي يقيم ارتباطًا مع الله، ويسعى في هذه الدنيا إلى العيش بما يتطابق مع تعاليم الله سبحانه وتعالى. إن الحدود بين الإنسان الحي حقيقة وبين الإنسان الميّت حقيقة، لا تكمن في حياته المادية والطبيعية، بل في الإيمان والتسليم أمام الله سبحانه وتعالى[٦].

---

١. الطوسي، شرح الإشارات والتنبيهات، ٢٩٨.

٢. صدر المتألهين، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ٩: ٣٨٠- ٣٨٥.

٣. قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾. الحجر: ٢٩؛ ص: ٧٢.

٤. الجوادي الآملي، حيات حقيقي إنسان در قرآن، ١٥.

٥. م. ن، ٨٤.

٦. م. ن، ٨ ٥٤.

في ضوء هذه الرؤية القرآنية فإن الذين يمتلكون في هذه الدنيا جسمًا إنسانيًا، لا يخرج أمرهم عن إحدى حالتين، وهما:

١. إما أن يكونوا من البشر حقيقة.

٢. أو أن يكونوا في الشكل وبحسب الظاهر من البشر، وأما في الحقيقة والواقع فإنه ليسوا سوى حيوانات أو هم أسوأ من الحيوانات. لو انقطعت علاقة الإنسان مع الله في هذه الدنيا، فسوف يفقد حقيقة إنسانيته، بمعنى أنه يخرج عن دائرة الإنسانية. عندما يسقط الشخص عن مرتبة الإنسانية، فإنه لن يكون مستحقًا للحصول على حقوق الإنسان؛ لأنه لا يعود من أفراد البشر، وكذلك حيث لا يكون وجوده مانعًا من بقاء الآخرين على قيد الحياة، فإن حقوقه من وجهة نظر القرآن الكريم لن تعدو حقوق الحيوانات[1].

والسؤال المهمّ: من هم الأشخاص الذين ينقطع الارتباط بينهم وبين الله سبحانه وتعالى، ويخرجون بذلك عن مدار الإنسانية؟ إن الإنسان الحي من وجهة نظر القرآن الكريم هو الشخص الذي يمتلك بالإضافة إلى الجسم البشري روحًا تسلك مسار السعادة، أو في الحدّ الأدنى تقتحم مسار الشقاء بوعي وإدراك منها. وعلى هذا الأساس فإن الإسلام يرى أن الذين يُعرضون عن دين الله عمدًا وعنادًا، أو بالإضافة إلى ذلك يحاربونه ويصدّون الناس عن سبيل السعادة، ويسحبونهم إلى ما هم فيه من مستنقع الضلال وقطع العلاقة

١. إن النقطة المهمّة هي أن حقوقًا من قبيل: حق الحياة، وحق الحرية الجسدية (بأن لا يعتقل في سجن)، وحق التناسل، وحق الصحة والسلامة الجسدية، تعد من بين حقوق الحيوانات؛ وعليه لو أن شخصًا خرج عن مدار الإنسانية وتنزل إلى مرحلة الحيوانية، لا يمكن سلب حقوق الحيوانات عنه من قبيل الحقوق المذكورة آنفًا.

مع الله، لا يكونون من البشر، بل هم أشبه بالحيوانات بل هم أضل سبيلًا[١]. وعلى الرغم من أن هذه الكائنات تمتلك بحسب الظاهر سمعًا وبصرًا، ولمنهم في الواقع بُكم وعُمي لا يسمعون ولا يرون من الحقيقة شيئًا. وعليه فإن هؤلاء الأشخاص حتى إذا امتلكوا قوّة عاقلة على نحو طبيعي، إلا أنهم يفتقرون إلى القدرة على إدراك الحقيقة ولا يستطيعون التفكير[٢]. إن هؤلاء الأشخاص أحياء بحسب الظاهر، ولكنهم في الحقيقة والواقع أموات بحسب تعبير القرآن الكريم والروايات الإسلامية[٣].

---

١. هناك الكثير من الآيات في القرآن الكريم تدلّ على هذه الحقيقة، وهي أن الذين تمّت عليهم الحجة؛ بمعنى أنهم قد أيقنوا بأحقية دين الله، ولكنهم بدلًا من إطاعة الله ورسوله ﷺ يؤثرون التبعية لأهوائهم النفسية سوف يكونون من حيث القيمة مثل الحيوانات أو أسوأ من الحيوانات.

٢. هناك في هذا الشأن آيات من القرآن الكريم أيضًا، كما في قوله تعالى:

١ ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ... ﴾. الأنعام: ٣٩.

٢ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾. الأنفال: ٢٠- ٢٢. وقال في الآيات اللاحقة أيضًا: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾. الأنفال: ٥٥- ٥٦.

يستفاد من هذه الآية الكريمة أن جميع الكافرين لا يكونون مشمولين لحكم هذه الآية، بل هي تشمل خصوص الذين يختارون الكفر ويتنكرون لدين الله عن وعي وإدراك؛ فهم أضل من البهائم.

٣ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾. هود: ١٨- ٢٠.

٣. لقد تحدّث الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة عن العلماء الذين لا يسلكون سبيل الهداية ولا يعملون بعلمهم ويدعون الناس إلى الضلال، وقال عنهم بأنهم أشبه بالبهائم منهم إلى البشر، وأنهم موتى بين الأحياء: «فالصورة صورة إنسان والقلب قلب حيوان ... وذلك ميّت الأحياء». (نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٨٧).

إن الله سبحانه وتعالى في ضوء نظرية «القول بمقام الإنسان الكامل» قد أودع في روح الإنسان نزوعًا إلى الكمال المطلق، ليكون في ذلك ما يستحثه إلى التحرّك نحو الكمال المطلق. إن الوصول إلى المقام العالي للإنسان الكامل هو أقرب مقام للمخلوق من مقام ألوهية الخالق. ولا يمكن تحقيق هذا الأمر إلا من طريق إطاعة الله واتباع دينه؛ كما وصل رسول الله ﷺ إلى هذا المقام[1].

من هنا يمكن القول بوضوح وبضرس قاطع: إن ملاك وفلسفة حقوق الإنسان في الإسلام عبارة عن: «استحقاق التكامل المعنوي للبشر في إطار الوصول إلى مقام الإنسان الكامل».

بالنظر إلى أن هذا المقام مطلوب بالذات والفطرة للناس، فإن كل أمر يساعد على إيصال الإنسان إلى هذا المقام، سوف يكون مطلوبًا غيريًا له وبالعرَض، ويجدر بالإنسان أن يستفيد من هذا المطلوب الغيري؛ بمعنى أن له حقًا فيه. وحيث تكون هذه الحقوق أمورًا طبيعية، فقد جعلها الله سبحانه وتعالى في متناول الناس ليصلوا من خلالها إلى مقام الإنسان الكامل، يطلق على هذه الأمور الطبيعية مصطلح «حقوق الإنسان».

وبعبارة أخرى: بالنظر إلى التفسير الصحيح لحقيقة الإنسان في الإسلام، فإن حقوق الإنسان تعمل على إظهار صورتها الحقيقية أيضًا. إن حقوق الإنسان في هذه الرؤية لا تقتصر على مجرّد الحقوق التي تهتم بالبُعد المادي من حياة الإنسان على نحو استقلالي فقط. يمكن أن يُستنبط من نظرة الإسلام الفلسفية إلى الإنسان أن حقوق الإنسان عبارة عن حقوق وإمكانات وشرائط

١. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾. النجم: ٨ ـ ٩.

قد وضعها الله سبحانه وتعالى بشكل طبيعي ومن أجل وصول الإنسان إلى مقام الخلافة الإلهية (مقام الإنسان الكامل) في متناول جميع الناس. ويمكن القول باختصار: إن حقوق الإنسان عبارة عن تلك الطائفة من الحقوق الطبيعية التي يمتلكها جميع أفراد البشر من أجل الوصول إلى مقام الإنسان الكامل.

إن الذين يخرجون بحسب تعبير القرآن الكريم عن دائرة الإنسانية، لن يكون لهم نصيب من حقوق الإنسان؛ سواء أكان هؤلاء الأشخاص من الذين يدّعون التديّن أو ينكرونه. وفي حالة استحقاق هؤلاء الأشخاص لمواصلة الحياة المادية، سوف تثبت لهم حقوق الحيوانات فقط. ما أكثر قادة الشعوب الذين كانوا يعرّفون عن أنفسهم بوصفهم من المتدينين، ولكنهم قضوا على حياة الكثيرين من الأبرياء ظلمًا وعدوانًا. لا شك في أن هؤلاء الأشخاص حتى مع ادعائهم التديّن يحرمون من حق الحياة الحيوانية[١]، ناهيك عن الذين لا يدّعون التدين ومع ذلك يقترفون هذا النوع من المظالم[٢].

وعلى هذا الأساس يمكن لنا أن ندرك أمرًا مهمًّا آخر، وهو أن من الثابت قطعًا أن نظرة الأديان السماوية إلى حقوق الإنسان في مورد جميع الأشخاص الذين يبدون من بني البشر بحسب الظاهر، لم تكن على نسق واحد؛ ولذلك لأن الإنسان الحقيقي ونعني به الشخص الذي يرتبط بالله حقيقة هو الذي يستحق حقوق الإنسان فقط، دون الذين يمتلكون الشكل الظاهري من

---

١. إن أشخاصًا من أمثال: يزيد بن معاوية، وعبيد الله بن زياد، وعمر بن سعد، وشمر بن ذي الجوشن، والعشرات غيرهم من الذين كان لهم دور مباشر أو غير مباشر في قتل خير عباد الله الصالحين في أرض كربلاء، من المصاديق البارزة لهؤلاء الأشخاص.

٢. يُعد أودولف هتلر، وبينيتو موسوليني، ويوسف ستالين، وآرييل شارون من جملة هؤلاء الأشخاص.

الإنسان فقط! إن الذين يخرجون أنفسهم من دائرة الإنسانية، إنما يحصلون في الحدّ الأقصى على حقوق الحيوان لا أكثر[١].

النتيجة

بعد نقد أهم النظريات الفلسفية لشرح وبيان حقوق الإنسان في الغرب، ندرك عجز المنظومة الفلسفية للغرب في شرح وتفسير مباني حقوق الإنسان. إن الإشكال الأهم الذي تعاني منه جميع هذه النظريات يكمن في تفسيرها البشري لماهية الإنسان. بالإضافة إلى سطحيتها وعدم جامعيتها.

إن الدين الإسلامي الحنيف مثل سائر الأديان السماوية قد تمّ إنزاله على البشر لغرض إيصال الإنسان إلى الكمال. ولهذا السبب فإنه منذ ظهوره قد اهتم بمسألة حقوق الإنسان وتكاليفه بشكل خاص. إن الله سبحانه وتعالى إنما خلق الناس ووضع لهم حقوقًا من أجل وصول الإنسان إلى المراتب العليا من الكمال. إن من بين أهم الحقوق هي الحقوق الطبيعية للإنسان. إن الملاك الوحيد الذي يمكن الدفاع عنه لحقوق الإنسان في ضوء التعاليم الإسلامية، إنما هو «الاستحقاق المعنوي للإنسان من أجل الوصول إلى مقام الإنسان الكامل

١. لا شك في أننا في هذه المقالة لسنا بصدد تجريد غير المسلمين من إنسانيتهم. بل إن الذي يمكن أن نستفيده من النصوص الدينية هو أن الذين يعرضون عن دين الله بعلم منهم، أو الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون إلى القضاء على الدين أو يصدون الناس عن السبيل ويحرمونهم من بلوغ السعادة ويسعون إلى توريطهم في الضلال مثلهم، هم وحدهم الذين يخرجون عن دائرة الإنسانية. وعلى هذا الأساس يجب القول: في العالم المعاصر الذي يصطلح عليه بالعالم المتحضر، هناك الكثير من غير المسلمين الرازحين تحت وطأة الإمبراطوريات الإعلامية الإلحادية والصهيونية العالمية، ولذلك لم يتمكنوا حتى الآن من معرفة الدين الحق؛ وعليه لم يكن إعراضهم عن الدين صادرًا عن وعي أو عناد منهم. إن هؤلاء في الحقيقة ليسوا سوى مستضعفين فكريين لم يخرجوا عن دائرة الإنسانية.

(مقـام الخلافة الإلهية)»؛ ومن هنا فـإن كل ما يتنافى في منظومة التفكير العملي الإسلامي مع التكامل المعنوي للإنسان، سوف يُعدّ منافيًا لحقوق الإنسان.

إن السؤال الأهم الذي يفرض نفسه على القارئ بالنظر إلى الاهتمام بملاك حقوق الإنسـان في الإسـلام، هـو السـؤال القائل: ما هـي مصاديق حقوق الإنسـان؟ إن الإجابة عن هذا السـؤال المهم للغاية، يـدل على ضرورة القيام بدراسـة وتحقيق في بحث حقوق الإنسان. إن هذا الأمر يوجب على المفكرين المسلمين أن يقوموا بجهود جادّة في بيان وشرح هذا النوع من الأبحاث حول حقوق الإنسـان، لكي تشـمل تعاليم الإسـلام في حقل العلم والتفكير هذا القسم من العلوم الإنسانية على نطاق أوسع.

المصادر

١. القرآن الكريم.

٢. نهج البلاغة.

٣. الجوادي الآملي، عبد الله، حيات حقيقي إنسان در قرآن، قم، مركز نشر إسراء، ١٣٨٢ هـ.ش.

٤. حائري يزدي، مهدي، كاوش‌هاي عقل عملي، طهران، مؤسسه پژوهشي حكمت و فلسفه ايران، ط ٢، ١٣٨٤ هـ.ش.

٥. صدر المتألهين، محمد، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨١ م.

٦. طالبي، محمد حسين، «بازخواني انتقادي آموزه قانون طبيعي در حكمت عملي يونان باستان»، مجلة: معرفت فلسفي، العدد: ٣٠، ص ١٦٩ – ٢٠١، شتاء عام: ١٣٨٩ هـ.ش.

٧. طالبي، محمد حسين، «جديدترين نظريه قانون طبيعي در بوته نقد»، مجلة: پژوهش‌هاي فلسفي / كلامي، العدد: ٣٩، ص ٦١ – ٧٤، ربيع عام: ١٣٨٨ هـ.ش.

٨. الطوسي، نصير الدين محمد، شرح الإشارات والتنبيهات، قم، نشر البلاغة، ط ٢، ١٣٧٥ هـ.ش.

٩. المصباح اليزدي، محمد تقي، نظريه حقوق اسلام، قم، مؤسسة آموزشي و پژوهشي امام خميني (ره)، ط ٢، ١٣٨٠ هـ.ش.

١٠. مظفري، محمد حسين، كشورهاي اسلامي و حقوق بشر، طهران، انتشارات باز، ١٣٨٨ هـ.ش.

11. Campbell, Tom; Rights: A Critical Introduction, London and New York: Routledge, 2006.
12. Donnelly, Jack; The Concept of Human Rights; London and Sydney: Croom Helm, 1985.
13. Donnelly, Jack; Universal Human Rights in Theory and Practice; Ithaca: Cornell University Press, 1989.
14. Finnis, John; “Is Natural Law Theory Compatible with Limited Government?”, George R. P. ed.; Natural Law, Liberalism and Morality, Oxford: Oxford University Press, 1996, p. 1 - 26.
15. Finnis, John; Fundamentals of Ethics; Washington, DC: Georgetown University Press, 1983.
16. Finnis, John; Natural Law and Natural Rights; Oxford: Clarendon Press, 1980.
17. Gewirth, Alan; "Why There Are Human Rights", Social Theory and Practice; No. 11, 1985, p. 48 - 235.
18. Gewirth, Alan; Human Rights: Essays on Justification and Applications; Chicago and London: The University of Chicago Press, 1982.
19. Hobbes, Thomas; Leviathan; M. Oakeshott ed., Oxford: Basil Blackwell, 1957.
20. Honoré, Tony; Ulpian; Pioneer of Human Rights, Oxford: Oxford University Press, 2002.
21. Jones, Peter; Rights; Houndmills and New York: Palgrave, 1994.
22. Mabbott, J. B.; The State and the Citizen; London: Arrow, 1958.
23. Melden, A. I.; Appendix III: "Declaration of the Rights of Man and of Citizens", Human Rights; Belmont: Wadsworth Publishing, p. 140 - 142; Appendix IV: "Universal Declaration of Human Rights", p. 143 - 149, 1970.

24. Meyerson, Denise; Understanding Jurisprudence; Oxon: Routledge - Cavendish, 2007.

25. Milne, A. J. M.; Freedom and Rights; London: George Allen and Unwin; NewYork: Humanities Press, 1968.

26. Ogley, Roderick C.; "Rights"; W. Outhwaite and T. Bottomore eds.; The Blackwell Dictionary of Twentieth Century Social Thought, Oxford and Cambridge, Mass.: Blackwell, 1993, p. 562 - 564.

27. Velastos, Gregory; "Justice and Equality"; A. L. Melden ed.; Human Rights, Belmont: Wadsworth, 1970, p. 76 - 95.

28. Vitoria, Francisco De; Political Writings [1526 - 1540]; in Pagden A. and Lawence J. eds.; Cambridge: Cambridge University Press, 1991.

29. Wasserstrom, Richard; "Rights, Human Rights and Racial Discrimination"; A. L. Melden ed.; Human Rights, Belmont: Wadsworth, 1970, p. 96 - 110.

30. Waterfield, Robin; The First Philosophers: the Presocratics and Sophists, Oxford: Oxford University Press, 2000.